أصحاب النفوس المطمئنة

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة

١٩٩٨ م - ١٤١٩ هـ

الناشر : المكتب المصرى الحديث

القـــاهـــرة : ٢ شارع شريف عمارة اللواء تليفون: ٣٩٣٤١٢٧

الإسكندرية : ٧ شـــارع نوبار المنشيـــة تليفون : ٤٨٤٦٦٠٢

(فاكـس: ٣٤٧٥٤٢٧ /٠٠٢٠٢)

المطابع: الكيلو ١٠ طريق مصر إسكندرية الزراعى شبرا الخيمة

تليفون : ٤٤٤١٠٧٠- ٤٤٤١٠٧٤- فاكس:٤٤٤١٠٧٧

عبد الحميد كشك

أصحاب النفوس المطمئنة

المكتب المصري الحديث

«يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ
ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى
وَٱدْخُلِى جَنَّتِى» .

(قرآن کریم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا محمداً رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين . صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبي الأمين ، وعلى آله وصحابته الغر الميامين ، وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين .

أما بعد . .

فإن موضوع كتابنا هذا له أهميته فى إيمان المؤمنين الذين امتلأت قلوبهم إيماناً بالله ، وتصديقاً بما جاء به نبي الله ﷺ

إلى الذين رضوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا .

هذا الموضوع يدور حول قضية من قضايا الفكر الإسلامى ، ألا وهى تعلق الروح بالبدن .

ليس ثمة أدنى شك أن الإنسان روح وبدن ، ومن كليهما تقوم حقيقته . فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء .

اعلم وفقنى الله وإياك أن للروح خمسة تعلقات بالبدن :

التعليق الأول

تعلقها به فى عالم الأجنة ، حيث مستقر الأرحام (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) .

إن من الحقائق الثابتة أن أحدنا يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يأمر الله الملك الموكل بالأرحام أن يكتب له رزقه وأجله وعمله ، وشقى هو أم سعيد ، وهذا بعد أن تنفخ الروح فيه ، وهذا أول تعلق للروح بالبدن ، وهو فى عالم الأجنة .

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظـــام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

التعليق الثانى

وجاء الوقت المعلوم الذى تقلصت فيه عضلات الرحم ، فأصبح الإنسان ضيفاً ثقيلا ، وجاء الإذن من الله بالتحرك من ضيق الرحم وظلماته .

ما الرحم ؟

وما الرحم إلا كيس عضلى كمثرى الشكل يبلغ طوله سبعة من السنتيمترات وعرضه خمسة من السنتيمترات ، وسمكه اثنان ونصف من السنتيمترات ، يقع خلف المثانة أمام المستقيم .

نعم : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

يا ابن آدم :

أنت الذى ولدتك أمك باكياً
والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا
فى يـــوم موتك ضاحكاً مسروراً

سبحان الخالق الواحد الذى يقول : (إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) .

وجئت يا ابن آدم إلى الدنيا ، فباشرت الروح التعلق الثانى ببدنك ، وطفت الأرض مشرقاً ومغرباً ، تسعى وراء المال وجمعه ، ثم بعد ذلك كنت حريصاً على التمسك بالدنيا ، مهما كان هواؤها سموماً ، وطعامها زقوماً ، وماؤها آسناً ونسيت أن وراءك يوماً يجعل الولدان شيباً .

التعليق الثالث

وهو تعلق الروح بالبدن عند النوم ، فإنك وأنت نائم يكون للروح تعلق من وجه ، وسبحات فى أرجاء الكون من وجـــه آخر ، فإذا ما انتهى الأجل أمسك الله الروح عنده ، وإن كان هناك بقية أرسل الله الروح لتباشر البدن فى اليقظة .

قال عز من قائل (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

التعليق الرابع

وهو تعلق الروح بالبدن بعد الموت .

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة فيها تأمل فى الموت ، إذ أنه الحقيقة التى لا مراء فيها .

فما الموت ؟

الموت فلسفة حارت فيها عقول المفكرين ، ووقفت واجمة حيالها عبقريات البارعين .

قال الله تبارك وتعالى (فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين . فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم . إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) .

حديث الغزالى عن الموت

يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى رضى الله عنه عن الموت :

« الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فى الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى التراب ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزاً ، واتخـذوا من دونه حجاباً وحرزاً ، وانظر هل تحس منهم من أحـد أو تسمع لهم ركزاً ؟ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصاً للأشقياء ، وموعداً فى حقهم

للقاء ، وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم الظافرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر فى السماوات والأرض وله الحمـــد فى الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيراً .

فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده، والجنة والنور مورده ، ألا يكون له فكر إلا فى الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا عول إلا حوله ، ولا انتظار وتربص إلا له ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ، ويراها فى أصحاب القبور ، فإن كل ما هو آت قريب ، والبعيد ما ليس بآت ، وقـــد قال ﷺ « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، ولن يتيسر الاستعداد للشىء إلا عند تجدد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له ، والنظر فى المنبهات عليه » أهـ .

سكرات الموت

(ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعوام مالك أمره
متنعماً فيها بكل نفيسة متلذذاً فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هـذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

قال العارف بالله أبو حازم لسليمان بن عبد الملك ،وهو يسأله : لماذا نحب الدنيا ونكره الآخرة يا أبا حازم ؟

فقال العارف بالله : لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، والنفس لا تحب الخروج من العمار إلى الخراب .

قال له : فمتى تذكرنا يا أبا حـازم ؟

قال له : يوم ننسى الله .

قال سليمان : فلم لا تأتينا ؟

قال أبو حـازم : لأننا نأتى باب الله .

قال سليمان : تمن على أعطك .

قال أبو حـازم : لا تستطيع ذلك .

قال سليمان : سل .

قال أبو حازم : أتستطيع أن تدخلنى الجنة وتباعدنى عن النار ؟

قال سليمان : لا أستطيع ذلك .

قال أبو حازم : فدعنى مع الذى يستطيع ذلك .

* * *

اعلم أخا الإسلام أن الدنيا إلى شتات ، وكل حى إلى ممات ، والعاقل هو الذى يستعد لسكرات الموت .

وللإمام الغزالى رحمه الله كلام عجيب فى هذا الباب يقول فيه :

« اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ، ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ، ويعظم له استعداده ، لاسيما وهو فى كل نفس بصدده ، كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك .

وقال لقمان لابنه : يا بنى أمرلا تدرى متى يلقاك، استعد له قبل أن يفجأك ، والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو ، فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته ، وفسد عليه عيشه ، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات الفزع ، وهو عنه غافل ، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور .

واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التى أدركها . . وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ما هم فيه . فأما القياس الذى يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم . فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح ، فهما أصاب العضو جرح أو حريق أو سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم ، والألم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم . فإن كان فى الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده ، والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح ، فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم » .

ويضرب الإمام الغزالى مثلا لذلك فيقول :

« فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة » .

ثم يقول : « فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه ، فإنه المنزوع المحذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ، ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة وبشرة من المفرق إلى القدم ، فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ، ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح ، فكيف

إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ، وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه ، وتصاعد على قلبه ، وبلغ كل موضع منه ، فهد كل قوة ، وضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة الاستغاثة » .

الأعضاء عند سكرات الموت

قال الغزالى رحمه الله تعالى :

أما العقل فقد غشيه الموت وشوشه ، وأما اللسان فقد أبكمه ، وأما الأطراف فقد ضعفها ، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، ولكنه لا يقدر على ذلك ، فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وأربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله ، فالألم منتشر فى داخله وخارجه ، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه ، وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما ، وتخضر أنامله ، فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ، ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيما ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم لا من عرق واحـد ، بل من جميع العروق ، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً ، فتبرد أولا قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة :

وتحيط به الحسرة والندامة . قال رسول الله ﷺ « تقبل توبة العبد ما لم يغرغر » .

وقال مجاهد فى قوله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن) قال : إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم هون على محمد سكرات الموت » .

والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به ، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت ، حتى قال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين أدعو الله تعالى أن يهون على هذه السكرة يعنى الموت فقد خفت الموت مخافة كأنما أوقفنى خوفى من الموت على الموت .

وروى أن عيسى عليه السلام مر بجمجمة فقال : تكلمى بإذن الله : فقالت : يا روح الله أنا ملك زمانى كذا وكذا ، بينما أنا جالس فى ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرير ملكى إذ بدا لى ملك الموت ، فزال منى كل عضو على حياله ، ثم خرجت نفسى إليه ، فياليت ما كان من تلك الجموع ، كان فرقة ، ويا ليت

ما كان من ذلك الأنس ، كان وحشة ، فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت .

رؤية المطيع لملك الموت

أما المطيع فإنه يراه فى أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيوراً ، وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت ، فقال من أدخلك دارى ، فقال : أدخلنيها ربها ، فقال : أنا ربها (أى صاحبها) فقال : أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك ، فقال من أنت ؟ من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ، قال : هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم ، فأعرض عنى ، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه ، وطيب ريحه ، فقال : يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه .

رؤية الملكين الحافظين

قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله ، فإن كان مطيعاً قالا له : جزاك الله عنا خيراً ، فرب مجلس صدق أجلستنا ، وعمل صالح أحضرتنا ، وإن كان فاجراً قالا له : لا جزاك الله عنا خيراً ، فرب مجلس سوء أجلستنا ، وعمل غير صالح أحضرتنا ، وكلام قبح أسمعتنا ، فلا جزاك الله عنا خيراً .

الميت يعرف أين مقعده

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

اعلم – وفقنى الله وإياك – أن ابن آدم إذا نام على فراش الموت ، استشف ما وراء الحجب ، فرأى مقعده من الجنة كما قال الله تبارك وتعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) .

وقد يرى مقعده من النار إن كان غير ذلك . قال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون)

ولقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة تشرح هـذه المعانى بما لا يدع مجالا لشبهة ، أو ظلالا لشك .

روى ابن أبي الدنيا في الموت عن علي موقوفاً « لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار) .

وفي رواية « حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار » .

وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك . قال ﷺ « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته . وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته » .

وقال ﷺ « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالوا كلنا نكره الموت . قال ليس ذاك بذاك ، إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه » .

وروى في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال « إن الله إذا رضي عن عبد قال : يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه جنبي من عمله ، قد بلوته فوجدته حيث أحب . فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ ، قال : فيقول له جنوده : مالك

يا سيدنا ؟ فيقول : أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة ؟ أين كنتم من هذا ، قالوا : قد جهدنا به فكان معصوماً » .

وقال الحسن رضى الله عنه : لا راحـــة للمؤمن إلا فى لقاء الله ، ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه .

وقيل لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهى ؟ قال : نظرة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن قيل له : هذا الحسن ، فرفع طرفه إليه ثم قال : يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة .

وقال محمد بن واسع عند الموت : يا إخواناه عليكم السلام إلى النار أو يعفو الله .

وتمنى بعضهم أن يبقى فى النزع أبداً ولا يبعث لثواب ولا عقاب .

الموت حق على جميع العباد

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) .

المتأمل فى آى القرآن الكريم يلمح أن الآيات الدالة على الفناء موجبة كلية فى قضاياها ، أى أنها مسورة بسور كلى لم يتقدمه أى أداة نفى .

وتطبيقاً لهذه القاعدة نذكر الشواهد :

قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

وقال جل شأنه (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) .

وقال تبارك وتعالى (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) .

وقال عز من قائل (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) .

وقال تبارك اسمه (كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) .

ولو كان هناك خلود لأحد لكان الأولى بالخلود النبي العظيم ﷺ ، ولكنه انتقل من هذه الدار الفانية إلى دار الآخرة الباقية .

وفـــاة النبي ﷺ

ولما لهذه القضية من أثر له عمقه فى النفس ، طالما اهتزت له أعواد المنابر ، ووصل رنينه إلى أعماق القلوب ، فإننا نذكر حادث وفاة النبي ﷺ كما ذكر حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) .

قال رحمه الله :

اعلم أن فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة حياً وميتاً ، وفعلا وقولا ، وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه ، إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه ، فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ، وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لا ، بل أرسل إليه الملائكة الكرام

الموكلين بقبض أرواح الأنام ، مجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك فى النزع كربه ، وظهر أنينه وترادف قلقه ، وارتفع حنينه وتغير لونه ، وعرق جبينه واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوة دافعاً عنه مقدراً . أو هل راقب الملك فيه أهلا وعشيراً ، وهل سامحه إذ كان للحق نصيراً ، وللخلق بشيراً ونذيراً ؟ هيهات بل امتثل ماكان به مأموراً ، واتبع ما وجده فى اللوح مسطوراً . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود ، وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض . فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه ، بل نحن أسراء الشهوات ، وقرناء المعاصى والسيئات . فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين ، لعلنا نظن أننا مخلدون ، أو نتوهم مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيهات هيهات ، بل نتيقن أنا جميعاً على النار واردون ، ثم لا ينجو منها إلا المتقون ، فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون ، لا ، بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين ، وقد قال الله رب العالمين (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) .

فلينظر كل عبد إلى نفسه إنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين .

فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين . فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين . ثم انظر إلى سيد المرسلين ، فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين ، وقائـــد المتقين ، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا ، وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى .

قال ابن مسعود رضى الله عنه ، دخلنا على رسول الله ﷺ فى بيت أمنا عائشة رضى الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال : « مرحباً بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصى بكم الله إنى لكم منه نذير مبين . ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده ، وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، وإلى جنة المأوى ، وإلى الكأس الأوفى ، فاقرءوا على أنفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله .

وروى أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته « من لأمتى بعدى ؟ فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبى أنى لا أخذله فى أمته ، وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا ، وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته ، فقال : الآن قرت عينى » .

وقالت عائشة رضى الله عنها ، أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ، ففعلنا ذلك ، فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ، ودعا لهم ، وأوصى بالأنصار فقال :

« أما بعد يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها اليوم ، وإن الأنصار عيبتى التى أويت إليها ، فأكرموا كريمهم ، يعنى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم . ثم قال : إن عبداً خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله . فبكى أبو بكر رضى الله عنه وظن أنه يريد نفسه . فقال النبى ﷺ : على رسلك يا أبا بكر ، سدوا هذه الأبواب الشوارع فى المسجد إلا باب أبى بكر ، فإنى لا أعلم امرأ أفضل عندى فى الصحبة من أبى بكر » .

قالت عائشة رضى الله عنها « فقبض ﷺ فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى ، وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت ، فدخل على أخى عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت له : آخذه لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم ، فناولته إياه فأدخله فى فيه ، فاشتد عليه ، فقلت ألينه لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم ، فلينته . وكان بين يديه ركوة ماء ، فجعل يدخل فيها يده ويقول : لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ، ثم نصب يده يقول : الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى ، فقلت : إذن والله لا يختارنا » .

وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار أن رسول الله ﷺ يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضى الله عنه على النبي ﷺ فأعلم بمكانهم وإشفاقهم ، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ، ثم دخل عليه على رضى الله عنه فأعلمه بمثله ، فمد يده وقال ها فتناولوه فقال ما تقولون ؟ قالوا : نقول نخشى أن تموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ، فثار رسول الله ﷺ ، فخرج متوكئاً على على والفضل والعباس أمامه ورسول الله ﷺ معصوب الرأس بخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنه بلغنى أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت ، وما تنكرون من موت نبيكم ، ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم ، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون به ، وإنى أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله عز وجل قال : (والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وإن الأمور تجرى بإذن الله ، فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه — فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم — وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم ، أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم الثمار ؟ ألم يوسعوا عليكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين

فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى ، ألا وإن موعدكم الحوض ، حوضى أعرض مما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن ، يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد بياضاً من اللبن وألين من الزبد ، وأحلى من الشهد ، من شرب منه لم يظمأ أبداً ،حصباؤه اللؤلؤ ، وبطحاؤه المسك ، من حرمه فى الموقف غداً حرم الخير كله . ألا فمن أحب أن يرده على غداً فليكفف لسانه ويده ، إلا مما ينبغى . فقال العباس : يا نبى الله أوص بقريش ، فقال : إنما أوصى بهذا الأمر قريشاً والناس تبع لقريش ، برهم لبرهم ، وفاجرهم لفاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناس خيراً . يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم ، وتبدل القسم ، فإذا بر الناس برهم أئمتهم ، وإذا فجر الناس عقوهم . قال الله تعالى « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه « أن النبى ﷺ قال لأبى بكر رضى الله عنه : سل يا أبا بكر ، فقال يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال : قد دنا الأجل وتدلى . فقال لبيك يا نبى الله ما عند الله ، فليت شعرى عن منقلبنا . فقال إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، ثم إلى جنة المأوى ، والفردوس الأعلى ، والكأس الأوفى ، والرفيق الأعلى ، والحظ والعيش المهنا . فقال يا نبى الله من يلى غسلك ؟ قال : رجال من أهل بيتى الأدنى فالأدنى . قال : ففيم نكفنك ؟ فقال : فى ثيابى هذه ، وفى حلة يمانية ، وفى بياض مصر ، فقال : كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكى ، ثم قال : مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً ،

إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ، ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي على الله عز وجل — (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) ثم يأذن الله للملائكة في الصلاة على فأول من يدخل علي من خلق الله ويصلي على جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ، ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين . ثم أنتم ، فادخلوا على أفواجاً فصلوا على أفواجاً زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذوني ، بتزكية ولا صيحة ولا رنة ، وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ، ثم زمر النساء ، ثم زمر الصبيان .

قال : فمن يدخلك القبر ؟ قال : زمر من أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم . قوموا فأدوا عني إلى من بعدي .

* * *

وقال عبد الله بن زمعة : جاء بلال في أول شهر ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال رسول الله ﷺ : مروا أبا بكر يصلي بالناس ، فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقلت : قم يا عمر فصل بالناس فقام عمر ، فلما كبر وكان رجلا صيتاً سمع رسول الله ﷺ صوته بالتكبير ، فقال أين أبو بكر يأبى

الله ذلك والمسلمون ، قالها ثلاث مرات : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام فى مقامك غلبه البكاء ، فقال إنكن صويحبات يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر ، فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك : ويحك ماذا صنعت بى ، والله لولا أن ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك ما فعلت ، فيقول عبد الله : إنى لم أر أحداً أولى بذلك منك ، قالت عائشة رضى الله عنها : وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبى بكر إلا رغبة به عن الدنيا ولما فى الولاية من المخاطرة والهلكة ، إلا من سلم الله ، وخشيت أيضاً ألا يكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبى ﷺ وهو حى أبداً إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به ، فإذن الأمر أمر الله ، والقضاء قضاوه ، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة فى أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء ، فبينما نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك .

قال رسول الله ﷺ « أخرجن عنى ، هذا الملك يستأذن على ، فخرج من فى البيت غيرى ورأسه فى حجرى . فجلس وتنحيت فى جانب البيت فناجى الملك طويلا ثم إنه دعانى فأعادوا رأسه فى حجرى ، وقال للنسوة : أدخلن ، فقلت ما هذا بحس جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءنى ، فقال : إن الله عز وجل أرسلنى وأمرنى ألا أدخل عليك إلا بإذن ، فإن لم تأذن لى أرجع وإن أذنت لى دخلت ، وأمرنى ألا أقبضك حتى تأمرنى ، فماذا أمرك ، فقلت : أكفف عنى حتى يأتينى جبريل عليه السلام ، فهذه ساعة جبريل ، فقالت عائشة رضى الله عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى ، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئاً ، وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا . قالت : وجاء جبريل فى ساعته فسلم فعرفت حسه ، خرج أهل البيت فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً ، وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق ، وان تكون سنة فى أمتك ، فقال أجدنى وجعاً ، فقال : أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك ، فقال : يا جبريل إن ملك الموت استأذن على وأخبره الخبر ، فقال جبريل : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذى يريد بك ؟ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبداً إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق ، قال فلا تبرح إذن حتى يجىء ، وأذن للنساء فقال يا فاطمة أدن ، فأكبت

عليه ، فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ، ثم قال : أدن منى رأسك فأكبت عليه فناجاها ، فرفعت رأسها وهى تضحك ، وما تطيق الكلام ، فكان الذى رأينا منها عجباً ، فسألتها بعد ذلك فقالت : أخبرنى وقال إنى ميت اليوم فبكيت ، ثم قال : إنى دعوت الله أن يلحقك بى فى أول أهلى وأن يجعلك معى فضحكت ، وأدنت أبنيها منه فشمهما . قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك ما تأمرنا يا محمـــد ؟ قال ألحقنى بربى الآن ، فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ، ولم ينهنى عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ، ولكن ساعتك أمامك وخرج . قالت : وجـــاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبداً ، طوى الوحى وطويت الدنيا ، وما كان لى فى الأرض حاجة غيرك ، وما لى فيها حاجة إلا حضورك ؟ ثم لزوم موقفى ، لا والذى بعث محمداً بالحق ما فى البيت أحد يستطيع أن يحير إليه فى ذلك كلمة ، ولا يبعث إلى أحـــد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا . قالت : فقمت إلى النبى ﷺ حتى أضع رأسه بين ثدىى وأمسكت بصدره وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجـــدت رائحة شىء أطيب منه ، فكنت أقول له إذا أفاق بأبى أنت وأمى ونفسى وأهلى ما تلقى جبهتك من الرشح ؟ فقال : يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار ، فعند ذلك

ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا ، فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى بعثه إلى أبى ، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجى أحد ، وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغمى عليه قال بل الرفيق الأعلى ، كأن الخيرة تعاد عليه ، فإذا أطلق الكلام قال « الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعاً ، الصلاة الصلاة ، كان يوصى بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة » .

قالت عائشة رضى الله عنها : مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين . رواه ابن عبد البر .

موقف الصحابة بعد وفاة الرسول

روى أن عمر بعد ما لحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله ﷺ فإنه لم يمت ، والله والله لا أسمع أحداً يذكر أن رسول الله ﷺ قد مات إلا علوته بسيفى هذا . وأما على فإنه أقعد فلم يبرح فى البيت ، وأما عثمان فجعل لايكلم أحداً ، يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين فى مثل حال أبى بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما التوفيق والسداد ، وإن كان الناس لم يرعووا إلا بقول أبى بكر ، حتى جاء العباس فقال : والله الذى لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم (إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) — وبلغ أبا بكر الخبر ، وهو فى بنى الحرث

ابن الخزرج ، فجاء ودخل على رسول الله ﷺ ، فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفى رسول الله ﷺ ، ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت . قال الله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) الآية ، فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ .

واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال : قام أبو بكر في الناس خطيباً حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه على كل حال ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلله الحمد وحده ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين . اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ، ونبيك وحبيبك ، وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك . اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين ، محمد قائد الخير وإمام الخير ، ورسول الرحمة . اللهم قرب زلفته ، وعظم برهانه ، وكرم مقامه ، وابعثه مقاماً محموداً ، يغبطه به الأولون والآخرون ، وانفعنا بمقامه المحمـــود

يوم القيامة ، واخلفه فينا فى الدنيا والآخرة ، وبلغه الدرجـة والوسيلة فى الجنة . اللهم صلى على محمد وعلى آل محمـد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد . أيها الناس : إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لم يمت ، وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعاً ، فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ﷺ ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر — يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط — ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم ، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم .

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال : يا عمر أنت الذى بلغنى أنك تقول ما مات نبى الله ﷺ ؟ أما ترى أن نبى الله ﷺ قال يوم كذا : كذا وكذا ؟ ويوم كذا : كذا وكذا ؟ وقال تعالى فى كتابه — (إنك ميت وإنهم ميتون) ؟ فقال : والله لكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله قبل الآن ، لما نزل بنا ، أشهد أن الكتاب كما أنزل ، وأن الحديث كما حدث ، وأن الله حى لا يموت . إنا لله وإنا إليه راجعون ، وصلوات الله على رسوله . وعند الله نحتسب رسوله ﷺ ، ثم جلس إلى أبى بكر .

كيف غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

جاء فى كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى : أن عائشة رضى الله عنها قالت : لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ما ندرى كيف نغسل رسول الله ﷺ . أنجرده من ثيابه كما نصنع بموتانا ، أو نغسله فى ثيابه. قالت : فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقى منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائماً ، ثم قال قائل لا يدرى من هو : غسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه ، فانتبهوا ففعلوا ذلك . فغسل رسول الله ﷺ فى قميصه ، حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال على كرم الله وجهه : أردنا خلع قميصه فنودينا : لا تخلعوا عن رسول الله ﷺ ثيابه ، فأقررناه ، فغسلناه فى قميصه كما نغسل موتانا ، مستلقياً ، ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه ، وإن معنا لحفيفاً فى البيت كالريح الرخـــاء ، ويصوت بنا أرفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستكفون ، فكهذا كانت وفـــاة رسول الله ﷺ ولم يترك سبداً ولا لبداً إلا دفن معه . انتهى .

لنا فى موت رسول الله عبرة

وهكذا نام رسول الله ﷺ على فراش المرض ، وهكذا جاءته سكرات الموت بالحق .

وهكذا كان يقول « سبحان الله إن للموت لسكرات » .

وهكذا كان يدعو : اللهم هون على سكرات الموت .

وهكذا كانت ريحانته فاطمة الزهراء تقول : وا كرباه على كربك يا أبتاه .

وهكذا كان يرد عليها أبـوها الرحيم « يا فاطمة لا كرب على أبيك بعد اليوم » .

وهكذا لحق بالرفيق الأعلى . وغشيت عمر من هول المصاب غاشية حتى جاء أبو بكر ودخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى حيث كشف الغطاء عن الوجه الأقمر ، وقبل الجبين الأزهر قبلة الوداع . وقال : طبت حياً وميتاً يا رسول الله ، أما الموتة التى كتبها الله عليه فقد ذقتها ولن تذوق الموت بعدها أبداً ، وخرج على الناس يعلن هذا البيان الذى يعتبر من أشد ما قال الصديق ، وهو الذى قضى حياته يحنو على رسول الله ﷺ ، يريش بعطفه جناحه ، ويأسو بحنانه جراحه ، ولكن الموت لا مجاملة فيه ، لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول . لقد شاء الله أن يكون أبو بكر الصديق هو الذى يقف ليقول للمسلمين « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » .

إن هناك فرقاً بعد وفاة رسول الله ﷺ بين موقف أبى بكر وعمر . فعمر يتلقى النبأ وكأنه محموم فيتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء اليتيم ، فقد نظر إلى النبأ بعين العاطفة . أما أبو بكر فقد نظر إليه بعين العقل ، والواقع الذى لايقبل التغيير ، فوقف فى ثبات الجبال ، وقوة الإيمان ، يعلنها فى سمع الزمان صريحة مدوية ، لا لبس فيها ولا غموض « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » .

يرحمك الله يا من ربيت هؤلاء العباقرة . يا رسول الله .

نعم يا أبا بكر ، إن الله حى لا يموت . ولقد علم النبى ﷺ بالمصير المحتوم عندما نزل عليه قول الله تعالى : (إنك ميت وإنهم ميتون) .

وعندما قرأ قوله تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) .

وعندما قرأ قوله جل شأنه (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) .

نعم يا سيدى يا رسول الله . يا من نزل عليك الأمين جبريل ذات يوم فقال لك « يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه . واعلم بأن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس » .

البقاء لله وحده

لو كان هناك أحد سيخلد فى هذه الدنيا لكان الأولى بالخلود سيد البشر ﷺ ،ولكنه لحق بالرفيق الأعلى ، وانتقل من دار الفناء إلى دار الخلود والبقاء .

والمتأمل لآيات القرآن الكريم يجدها فى هذه القضية قضية الموت موجبة كلية .

اسمع إلى قوله جل شأنه :

(كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

وقوله تبارك اسمه (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) .

وقوله تبارك اسمه (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) .

وقوله سبحانه وتعالى (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) .

وقوله جل وعز : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) .

فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة . وسبحان ذى الملك والملكوت . والعزة والجبروت . والبقاء للحى الذى لا يموت .

تزود من التقوى فإنك لا تدرى
إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجهـا
وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم
وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة
وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

فالحمد لله المستحق لغايات التحميد ، المتوحد فى كبريائه من غير تكيف ولا تحديد . العلى القوى الولى الحميد . الغنى المغنى المبدىء المعيد ، المعطى الذى لا يفنى عطاؤه ولا يبيد ، المانع فلا معطى لما منع ، ولا راد لما يريد ، خلق الخلائق وسلكهم أحسن الطريق ، إلى الأمر الرشيد ، وصورهم فأحسن صورهم وبشرهم فى الجنة بالنعيم والتخليد . وبصرهم بعين الاعتبار ، وحذرهم من عذاب

النار والوعيد . وألزمهم شكره ، وضمن لهم كنز فضله المزيد . وحكم عليهم بالموت فما لأحد عنه محيص ولا محيد .

فكم أبكى خليلا بفراق خليله . وكم أيتم وليداً وشغله ببكائه وعويله . فلم يغنه ذلك شيئاً عن أمر من يبدىء ويعيد ، ومن هو فعال لما يريد .

فسبحان من أذل بالموت من الجبابرة كل جبار عنيد ، وكسر به من الأكاسرة كل بطل صنديد . أخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور . وقطع حبل أمدهم المديد . أخذ به الآباء والجدود ، والأطفال من المهود . فأسكنهم اللحود . وعفر وجوههم فى الصعيد . وسوى فى الموت بين الصغير والكبير . والغنى والفقير ، والمأمور والأمير ، والولد والوليد . أفنى به الذكور والإناث . فهم فى سجن الأجداث إلى يوم الوعيد .

أفلا يعتبر الغافل بمصرعهم . وقد أفناهم الموت بأجمعهم ، وفرق شملهم بالتبديد ؟

فكيف يغتر الإنسان وهو يعلم أن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . ولم يكن عند محيد .

أما كانت نفوسهم بذلك عالمة ، وهى من الموت غير سالمة (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) :

أين أهل المدن والحصون ؟

أين أرباب المعانى والفنون ؟

أين المحصنون بكل حصن منيع . وقصر مشيد ؟

أين الأمم ؟

أين أرباب القصور العالية ؟

حق عليهم الوعيـــد .

فلو عاينتهم فى قبورهم ، لعجبت من أمرهم .

قد غير البلى أحوالهم ، ومزق أوصالهم ، ولم يعرف منهم الأحرار من العبيد .

أما أصبح منهم ذو الشدة والبأس بعد القرب والإيناس ، فى ظلمة اللحود وحيد ؟

ما وعظهم الموت بمن أخذ من شقى وسعيد ، وقريب وبعيد ؟

أما أنذرهم قول الملك الحميد (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : « أتيت رسول الله ﷺ عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله من أكيس الناس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم لما بعده استعداداً . أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرة » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه .

فقلت : يا رسول الله أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت ؟ فقال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه . والكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه » .

وقال رسول الله ﷺ « لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه . قال فإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى ما كانت الوفاة خيراً لى » .

فاجتهد أيها العبد فى العمل الصالح . وأشفق من كأس لابد أنك ذائقه . وازهد فى عيش لابد أنك مفارقه . فما أنت بعد الموت إلا كما قال رسول الله ﷺ « ما الميت فى قبره إلا كالغريق المتعب ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها » .

إن القبر يناديك بلسان حاله ويقول : ويحك يا ابن آدم ما غرك بى . ألم تعلم أنى بيت الفتنة ، وبيت الظلمة ، وبيت الوحدة ، وبيت الدود ، وبيت التراب ؟

فإذا زرت القبور يا أخى فلا تقل إلا خيراً ، فإن الميت يتأذى بما يتأذى منه الحى . فما من رجل يمر على قبر أخيه المؤمن كان يعرفه فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام .

يا ابن آدم :

تناجيك أموات وهن سكوت ... وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغـة ... لمن تجمع الدنيا وأنت تموت
وإنكـــو إذ ما علينا تسلموا ... نرد عليكم واللسان صموت

أبو حازم وسليمان بن عبد الملك

دخل العارف بالله أبو حازم رضى الله عنه على أمير المؤمنين سليمان ابن عبد الملك . فقال : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟

قال : لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب .

قال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله تعالى ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، أما المحسن فكالغائب يأتى أهله فرحاً ، وأما المسئ فكالعبد الآبق يأتى مولاه خائفاً محزوناً .

وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه : قلت لأم هارون العابدة . أتحبين أن تموتى ؟ قالت : لا . قلت : ولم ؟ قالت : والله لو عصيت مخلوقاً لاستحييت من لقائه ، فكيف الخالق جل جلاله ؟

ثم أنشدت :

وكيف يلـذ العيش من هو عالم ... بأن إله الخلق لابـد سائله
فيأخذ منه ظلمـه لعبـــاده ... ويجزيه بالخير الذى هو فاعله

وكيف يلذ العيش من كان سائراً إلى لحد قبر فيه تبلى شمائله
ويذهب رسم الوجه من بعد ضوئه قريباً ويبلى جسمه ومفاصله

قال العارف بالله أبو بكر الكتانى رحمة الله عليه : كان رجل يحاسب نفسه على سيئاته وخطاياه فحسب عمره بالسنوات والأيام ، فوجد ما مضى من عمره واحداً وعشرين ألف يوم وخمسمائة يوم ، فقال متألماً : يا ويلتاه ! ! وأنا آتى ربى بواحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب . يقول : هذا لو كان فى كل يوم ذنب واحد فكيف بذنوب لا تحصى ؟ ثم قال :

آه على عمرت دنياى وخربت آخرتى ، وعصيت مولاى الوهاب ، ثم أخشى النقلة من العمران إلى الخراب ، وكيف أقدم فى يوم الحساب على الكتاب والعذاب بلا عمل ولا ثواب .

ثم أنشد قائلا :

منازل دنياى عمرتها وخربت دارى فى الآخرة
فأصبحت أنكر دارى الخراب وأرغب فى دارى العامرة

حسن الظن بالله

روى النبى ﷺ عن ربه تبارك وتعالى فى الحديث القدسى قال : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ،

وإن تقرب إلى بشبر ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » رواه البخارى .

ما أكرمك يا مولانا ، وما أعظم شأنك وما أوسع رحمتك ، وما أبلغ حكمتك ! !

أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات .

وتقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضى له الحاجات ؟

روى البخارى بسنده المتصل عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ — فيما يروى عن ربه عز وجل قال :

« إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها ، كتبها الله له عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحـــدة » .

قال أبو عمر الضرير : حدثنى سهل أخو حازم قال : رأيت مالك بن دينار فى المنام بعد موته فقلت له : يا أبا يحيى بماذا قدمت على الله عز وجل ؟ قال : قدمت عليه بذنوب كثيرة محاها حسن ظنى بالله عز وجل . ثم أنشد قائلا :

يظن النـاس بى خيراً وإنى لشر الناس إن لم تعف عنى
وما لى حيلة إلا رجـائى وجودك إن عفوت وحسن ظنى

وسئل بعض الزهاد : كيف حالك ؟ فقال : كيف حال من يريد سفراً بلا زاد ، ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس ، ويقدم على مالك قادر بغير حجة ؟ ؟

يارب . .

تعطف بفضل منك يا مالك الورى
فأنت ملاذى سيدى ومعينى
لئن أبعـدتنى عن حماك خطيئتى
فأنت رجـائى شافعى ويقينى
ولست أرى لى حجة أبتغى بها
رضاك وإن العفو منك يقينى

عثمان بن عفان يبكى

وقف عثمان بن عفان رضى الله عنه على قبر فبكى ، فقيل له : إنك تذكر الجنة والنار فلا تبكى – أو تبكى من هذا الموقف ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن ينج منه فما بعده أيسر منه . وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه .

سلامى على أهل القبور الدوارس
كأنهموا لم يجلسوا فى المجالس

ولم يشربوا من بارد المـــاء نهلة
ولم يطعموا من كل رطب ويابس
ولم يك منهم فى الحياة منافس
طويل المنى فيها كثير الوساوس
ألا ليت شعرى أين قبر ذليلكم
وقبر العزيز الشامخ المتشاوس
لقد سكنوا فى موحش الترب والثرى
فهاهم بها ما بين راج وآيس
ولو عقل المرء المنافس فى الذى
تركتم من الدنيا له لم ينافس

اصطلحوا مع الله

فيا أخا الإسلام ، اشغل قلبك بذكر الله ، ولسانك بتلاوة القرآن ، فإن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد والنحاس ، وإن جلاءها ذكر الله .

فبادر بالأعمال الصالحة ، واعلم بأن الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة ، والنفس طماعة ، عودها القناعة .

روى البخارى رضى الله عنه قال : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن لله ملائكة ، يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم .

قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا .

قال : فيسألهم ربهم — وهو أعلم بهم — : ما يقول عبادى ؟

قال : يقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك .

فيقول : هل رأونى ؟ قال : فيقولون . لا ، والله ما رأوك .

قال : فيقول : وكيف لو رأونى ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً وتحميداً ، وأكثر تسبيحاً .

قال : فيقول : فما يسألونى ؟

قال : فيقولون : يسألونك الجنة ، قال : يقول . وهل رأوها ؟

قال : يقولون : لا ، والله يا رب ما رأوها ؟ قال : يقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة .

قال : فم يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار ، قال : يقول : وهل رأوها ؟

قال : يقولون لا ، والله يا رب ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟

قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة .

قال : فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم .

قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ، ليس منهم ، إنما جاء لحاجة .

قال : هم الجلساء ، لا يشقى بهم جليسهم .

كلمات طيبة

هذه كلمات نسأل الله تبارك وتعالى أن يلهمنا إياها عند موتنا :

أخرج ابن ماجة فى سننه فى باب (فضل لا إله إلا الله) عن أبى إسحاق، عن أبى الأغر عن أبى مسلم ، أنه شهد على أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى — رضى الله عنهما — أنهما شهدا على رسول الله — ﷺ — قال : « إذا قال العبد : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، قال : يقول الله — عز وجل — : صدق عبدى لا إله إلا أنا ، وأنا الله أكبر .

وإذا قال العبد : « لا إله إلا الله وحده ، قال : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا وحدى ، وإذا قال : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، قال : صدق عبدى لا إله إلا أنا ولا شريك لى ، وإذا قال : لا إله إلا الله له الملك ، وله الحمد ، قال : صدق عبدى لا إله إلا أنا ، لى الملك ولى الحمد . وإذا قال : لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال : صدق عبدى لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بى » .

قال أبو إسحاق : « ثم قال الأغر شيئاً لم أفهمه ، قال فقلت لأبي جعفر ما قال ؟ فقال : من رزقهن عند موته لم تمسه النار » .

وأخرج النسائى فى سننه فى باب فضل الحامدين عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : « يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك . فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء وقالا : يا ربنا إن عبدك قال مقالة ، لا ندرى كيف نكتبها ؟ قال الله عز وجل – وهو أعلم بما قال عبده – ماذا قال عبدى ؟ قالا : يا رب إنه قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله – عز وجل – لهما : اكتباها كما قال عبدى ، حتى يلقانى فأجزيه به » .

وروى مسلم ، قال حدثنى محمد بن مثنى ، وحدثنى عبد الأعلى ، حدثنا داود عن عامر عن مسروق عن عائشة – رضى الله عنهما – قالت : « كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، فقال : خبرنى ربى – عز وجل – أنى سأرى علامة فى أمتى ، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .

من يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله

أخرج الترمذى فى جامعه عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله سيخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول . أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا ، يا رب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا ، يا رب ، فيقول : بلى ، إن لك حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : أحضر وزنك ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : إنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله أحد » .

أخرج الإمام الترمذى فى جامعه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ – « ما من حافظين رفعا إلى الله ما حفظا من ليل أو نهار ، فيجد الله فى أول الصحيفة وفى آخر الصحيفة خيراً ، إلا قال الله تعالى : أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة » .

وروى الترمذى عن أنس – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « يقول الله : أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً ، أو خافنى فى مقام » .

فيا أخا الإسلام :

فرغ قلبك لله وحـــده ، واجعله دائماً مطمئناً بذكره ، وإياك أن يشتغل قلبك بسواه .

أخرج الإمام الترمذى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : إن الله تعالى يقول : « يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتى ، املأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن تغفل ملأت يديك شغلا ، ولم أسد فقرك » .

إن الله تبارك وتعالى يباهى ملائكته المكرمين بما يأتى به العباد الصالحون من الخيرات والأعمال الطيبة .

أخرج الإمام النسائى فى سننه عن عقبة بن عامر – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « يعجب ربك من راعى غنم ، فى رأس شظية الجبل ، يؤذن بالصلاة ويصلى ، فيقول الله – عز وجل – : أنظروا إلى عبدى هذا ، يؤذن ويقيم الصلاة ، يخاف منى ، قد غفرت لعبدى ، وأدخلته الجنة » .

سبحانك ربى ما أكرمك ، وما أعظم شأنك ، وما أجود عطاءك .

أنت الذى تقبل التوبة عن عبادك ، وتعفو عن السيئات ، وتغفر الزلات ، وتعطى السائلين ، وترشد الحائرين ، وتكشف الضر عن البائسين .

من وقف ببابك لا يخيب سعيه ، ومن توكل عليك لا يضل سؤاله .

ومن دعاك لا تزل قدمه ، ومن عرفك لا يضيع عمله ، ومن أحبك لا يتسرب الخوف إلى فؤاده .

أنت الواحد العالم القادر المريد ، صاحب العظمة المطلقة ، وصاحب الكمال المطلق .

روى الإمام البخارى — رضى الله عنه — عن عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا مالك عن ابن شهاب ، عن أبى عبد الله الأغر وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال :

« ينزل ربنا — تبارك وتعالى — كل ليلة إلى سماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ » .

وأخرج الإمام أبو عيسى الترمذى — رحمه الله فى جامعه — عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى

غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتنى ، غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً — لأتيتك بقرابها مغفرة » .

فأقبل يا أخى على الله لتنال محبة الله، فإنها درجة لا ينالها إلا عبد صالح .

فاللهم ارزقنا حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربنا إلى حبك .

روى الإمام البخارى رضى الله عنه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : « إذا أحب الله العبد ، نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلاناً ، فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

وفى رواية عنه عن النبى ﷺ قال . « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل — عليه السلام — فقال : إنى أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل ، فيقول : إنى أبغض فلاناً فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً ، فابغضوه ، قال : فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض . »

إنك يا أخى يوم تنال هذه الدرجة ، وهى محبة الله لك ، فقد أصبحت فى كنف الله وستره ، فأصبح سمعك وبصرك ويدك ورجلك

وقلبك ولسانك ، كل أولئك يعملون فى ذكر الله ، وفى طاعته وفى محبته ، وفى رضاه .

روى الإمام البخارى رضى الله عنه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إن الله – عز وجل – قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته » .

الخوف من الله

ولكى يسلم الإنسان المسلم من غضب الله تعالى وعقابه لابد أن يكون قلبه فى حال خوف من الله ، حتى يكون بمنأى عن معاصيه ، فمن خاف سلم (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

روى الإمام البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – « أن رجلا ممن كان قبلكم وهبه الله مالا ، فقال لنبيه لما حضر : أى أب كنت لكم ؟ قالوا : خير أب . قال : فإننى لم أعمل خيراً قط ، فإذا مت فاحرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم ذرونى فى يوم عاصف ، ففعلوا ، فجمعه الله – عز وجل – فقال : ما حملك ؟ قال : مخافتك ، فتلقاه برحمته » .

ما يرقق القلوب

إن القلوب قد تعتريها القسوة ، وتنتابها الغفوة والغفلة ، ولابد لها من دواء يزيل صدأ الغفلة ، وغبار القسوة ، ليظهر معدنها كريماً ، فيه بريق الإيمان والرحمـــة .

ومن أهم ما يرقق القلوب ، ويجلو صدأها ، ذكر الموت .

يروى أن إمرأة شكت إلى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها ، فقالت لها : أكثرى من ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت ذلك ، فرق قلبها ، فشكرت عائشة رضى الله عنها .

ومرض أبو الدرداء رضى الله عنه فقالوا له أى شيء تشتهيه ؟ قال : الجنة ، قالوا : أندعوا لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضنى ، فقال له رجل من أصحابه : يا أبا الدرداء أتشتهى أن أسامرك الليلة ؟ فقال له أبو الدرداء : أنت معافى وأنا مبتلى ، والعافية لا تدعك أن تسهر ، والبلاء لا يدعنى أن أنام ، ثم قال : اسأل الله الذى لا إله إلا هو أن يهب لأهل العافية الشكر ، ولأهل البلاء الصبر .

أخا الإسلام :

وإذا ابتليت بشدة فاصبر لهـا	صبر الكرام فما يدوم مقامها
فالله يبلى كي يثيب فلا تضق	ذرعاً بنازلة جرت أحكامها
ولرب يوم نازلتك خطوبها	ثم انجلى قبل الظلام ظلامها
ولئن جزعت فليس ذاك بنافع	إن الأمور قضى بها علامها

فاعلم يا أخا الإسلام أن الآمال تطوى ، والأموال تفنى ، والأبدان تحت التراب تبلى ، وأن الليل والنهار يسرعان بقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد .

أخا الإسلام : إن العبد الصالح ليعالج سكرات الموت وكرباته وأن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول السلام عليك .

لما حضرت حسان بن أبي سنان الوفاة قيل له : كيف تجدك ؟ قال بخير إن نجوت من النار . قيل له ما تشتهي ؟ قال : ليلة طويلة أصليها كلها .

وقال عبد الله بن عتبة : عدت رجلا مريضاً فلما قعدت عنده قلت له : كيف تجدك ؟ فأنشدني :

خرجت عن الدنيا وقامت قيامتي	غداة أقل الحاملون جنازتي
وعجل أهلي حفر قبري وصبروا	خروجي وتعجيلي إليه كرامتي
كأنهموا لم يعرفوا قط صحبتي	غداة أتى يومي على وساعتي

ودخل المزنى على الشافعى رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : أصبحت عن الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عملى ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى ربى سبحانه وتعالى وارداً ، ولا أدرى روحى صائرة إلى الجنة فأهنيها ، أو إلى النار فأعزيها ، ثم أنشد :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرجا منى لعفوك سلماً
تعاظمنى ذنبى فلما قرنتـه بعفوك ربى كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرماً

وجاء رجل إلى مقبرة فأخذته سنة من النوم فرأى فى منامه صاحب القبر . فقال له يا هذا : إنكم تعملون ولا تعلمون ، ونحن نعلم ولا نعمل ، والله لو تكون ركعتان فى صحيفتى أحب إلى من الدنيا وما فيها .

وقال ثابت البنانى رضى الله عنه : دخلت المقابر لأزور القبر ، وأعتبر بالموتى ، وأتفكر فى البعث والنشور ، وأعظ لنفسى لعلها ترجع عن الغى والفجور . فوجدت أهل القبور صامتين لا يتكلمون ، وفرادى لا يتزاورون ، فأيست من مقالهم ، واعتبرت بأحوالهم ، فلما أردت الخروج إذا بصوت يقول : يا ثابت لا يغرنك صمت أهليها ، فكم من نفس معذبة فيها .

فيا أخى انتبه من رقدة الهجوع ، وافزع إلى الله تعالى بالتضرع والخشوع ، فكأنك بالموت وقد فرق الجموع ، وأخلى القصور

والربوع ، وأمطر عليهم سحائب الدموع ، وناداهم المشوق بطرف باك وقلب موجوع :

معارف فى الثرى هجـوع ... فالقلب من بعدهم صدوع
تكدرت بعـدهم حيـاتى ... فأوحشت منهم الربـوع
كانوا سرورى ونور عينى ... فما لهـا بعـدهم هجوع
ماتوا فأودى لذيـذ عيشى ... وبالأسى ذابت الضلوع
يا نفس كم من جموع وصل ... فرقهـا البين والولوع
يـا نفس للمـوت فاستعدى ... فالموت إتيـانه سريع
فـلا مليك ولا شريف ... فى الدهر يبقى ولا وضيع
ولا سـعيد ولا شـقى ... ولا عصى ولا مطيـع
يا نفس إن الأصول ماتت ... فمـا عسى تنبت الفروع

قال مالك بن دينار رحمة الله عليه : أتيت القبور على سبيل الزيارة والتذكار ، والتفكر فى الموت والاعتبار ، فتمنيت من يخبرنى عنهم بخبر ، أو يقص لى من آثارهم بعض أثر ، فقلت بلسان أحزانى ، ما قدحت زناد أشجانى من الفكر :

أتيت القبـور فنـاديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطـانه ... وأين العزيز إذا ما افتخر

قال : فنوديت من بين القبور وأنا بالوجد مغمور :

تفـانوا جميعـاً فـلا مخبر ... وماتوا جميعاً وصاروا عبر

وعـادوا إلى ملك عـادل عزيز مطاع إذا ما أمر
تروح وتغـدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أنـاس مضوا أما لك فيمن مضى معتبر

قال مالك بن دينار : فرجعت أبكى الدموع الغزار ، واعتبرت بذلك أى اعتبار .

قال بعض الصالحين : زرت مرة القبور حين عج بقلبى لهيب النار ، فأقمت عندها برهة من الزمان أنظر لها بعين الاعتبار ، وأناجى صرعاها بالعشى والإبكار ، وأجلس إليها فى الآصائل والأسحار ، فجال فكرى فى مجال التفكر والاعتبار ، بخطاب نظمته من محاسن الأشعار :

أحبابنا فارقتمونا فأوحشت قلوب لنـا من بعدكم وديـار
فكم قد تذاكرنا محاسن من مضى فجاءت دموع الفراق غزار
قضوا وقضيتم ثم نقضى فـلا بقا لحى وكاسات المنون تدار
وكنا وإيـاكم نزور مقـابراً وممّ فزرناكم وسوف نزار
سقت ديمة الرضوان ريـاثراكمو وسحت لها فى ساحتيه بحـار

فيامن ركن إلى الدنيا بإقامة وثبات ، احذر أسد الموت فإن له وثبات .

كيف تركن إلى اللذات وقد جاء فى طلبك الممات .

واعتبر يا هذا بمصارع الهالكين ، ففيهم لدى التفكر عظات .

روى الفضيل بن عياض قال : كنت آتى قبر أبى المرة والمرتين ، وأكثر زيارته ، فشيعت يوماً جنازة إلى المقبرة التى فيها أبى ، وكان ورائى شغل ، فتعجلت الرواح فلم أزره ، فلما كان الليل : رأيته فى المنام ، فقال : يا بنى إنك أتيت بالنعش ولم تأتنى ، فقلت : يا أبت وإنك لتعلم بى إذا أتيتك ؟ فقال : إى والله يا بنى ، إنك لتأتينى فلا أزال أنظر إليك حين تجوز القنطرة إلى أن تصل إلى ، وتقعد عندى ، ثم تقوم ، فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة .

ويروى أن فارساً مر بغلام فسأله يا غلام أين العمران ؟ فقال له : اصعد الشرف ، فصعد فأشرف على مقبرة فقال : إن هذا الغلام إما جاهل أو حكيم ، فرجع إليه فقال له : سألتك عن العمران ، فدللتنى على المقابر ، فقال الغلام : إنى رأيت أهل تلك ينقلبون إلى هذه ، ولم أر أحداً ينقلب من هذه إلى تلك ، وإنما ينقلب من الخراب إلى العمران ، ولو سألتنى عما يواريك ودابتك لدللتك . ثم أنشد :

يا نفس زورى القبور واعتبريها ... حيث فيهما لمن يزور عظات
فانظرى كيف حال من حل فيها ... بعد عز وهم بها أموات
حرصواوأملوا كحرصك يانفس ... وأوفاهم الحمام فماتوا
فالسراة العظام منهم عظام ... فى بطون الثرى حطام رفات
فكأن قد حللت فى مصرع القوم ... وحلت بجسمك المثلاث

نبذة عن وفاة أبي بكر الصديق رضى الله عنه

لما احتضر أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس لذا ولكن قولى : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) أنظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما ، فإن الحى إلى الجديد أحوج من الميت .

وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله ﷺ .

ودخلوا عليه فقالوا : ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك ؟

قال : قد نظر إلى طبيبى ، وقال : « إنى فعال لما أريد » .

ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه يعوده فقال : يا أبا بكر أوصنا . فقال : « إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك » .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا يا خليفة رسول الله ﷺ زودنا ، فإنا نراك لما بك ، فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه فى الأفق المبين . قالوا : وما الأفق المبين ؟ قال : قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة ، فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى هذا المكان : « اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين : فريقاً للنعيم ، وفريقاً للسعير ، فاجعلنى للنعيم ، ولا تجعلنى للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقاً ، وميزتهم قبل أن تخلقهم ، فجعلت منهم شقياً وسعيداً ، وغوياً ورشيداً ، فلا تشقنى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها ، فلا محيص لها مما علمت ، فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحداً لا يشاء حتى تشاء ، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربنى إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شىء إلا بإذنك ، فاجعل حركاتى فى تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلنى من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلنى من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدرى للإيمان وزينه فى قلبى . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأحينى بعد الموت حياة طيبة وقربنى إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتى ورجائى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال أبو بكر : هذا كله فى كتاب الله عز وجل » .

وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

يرحم الله شهيد الإسلام الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الذى قال فيه شاعر النيل حافظ إبراهيم ، فى عمريته الخالدة ، ينشد عدله وفضله :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً
بين الرعيـة عطلا وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا
ببردة كاد طول العهـد يبليها
وعهـده بملوك الفرس أن لهـا
سوراً من الجنـد والأحراس يحميها
رآه مستغرقاً فى نـومه فرأى
فيه الجـلالة فى أسمى معـانيها
فقال قولة حق أصبحت مثلا
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لمـا أقمت العدل بينهمو
فنمت نـوم قرير العين هانيها

يا رافعاً رايـــة الشورى وحارسها
جزاك ربك خيراً عن محبيها
رأى الجمـــاعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ، ورأى الفرد يشقيها
إن جاع فى شدة قـوم شركتهم
فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيـــا بقبضته
فى الزهـد منزلة سبحان موليها
فمن يبـــارى أبا حفص وسيرته
أو من يحـــاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها
من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
ما زاد عن قـــوتنا فالمسلمون به أولى
فقومى لبيت المـــــال رديها
كذاك أخـــلاقه كانت وما عهـــدت
بعد النبوة أخـــلاق تحاكيها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها
بفضل ربك حصناً من أعـاديها

كيف استشهد عمر ؟

استشهد رضى الله عنه وهو يصلى الفجر بالمسلمين ، طعنه عبد

مجوسى اسمه أبو لؤلؤة . ولنصغ إلى الصحابى الجليل عمرو بن ميمون وهو يحدثنا كيف وقع ذلك . قال رضى الله عنه :

كنت قائماً غداة أصيب عمر ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس ، وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما ، فإذا رأى خللا قال استووا ، حتى إذا لم ير فيهم خللا ، تقـــدم فكبر . قال : وربما قرأ سورة يوسف ، أو النحل ، أو نحو ذلك فى الركعة الأولى ، حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول : قتلنى أو أكلنى الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة ، وطار بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً أو شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، فمات منهم تسعة ، وفى رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين ، طرح عليه برنساً ، فلما ظن أبو لؤلؤة أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر رضى الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فأما من كان يلى عمر ، فقد رأى ما رأيت ، وأما نواحى المسجد ما يدرون ما الأمر ، غير أنهم فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله ، سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن عباس أنظر من قتلنى ، قال : فغاب ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة بن شعبة . فقال عمر رضى الله عنه : قاتله الله ، لقد كنت أمرت به معروفاً ، ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم .

قال عمرو بن ميمون : واحتمل عمر إلى بيته ، فانطلقنا معه ، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ . قال فقائل يقول : أخاف

عليه ، وقائل يقول : لا بأس ، فأتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ، قد كان لك صحبة من رسول الله ﷺ ، وقدم فى الإسلام ، ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وددت أن ذلك كان كفافاً . لا على ولا لى .

فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض ، فقال ردوا على الغلام . فقال يا ابن أخى ارفع ثوبك فإنه أتقى لثوبك ، وأتقى لربك ، ثم قال : يا عبد الله أنظر ما على من الدين ، فحسبوه . فقال له أد ما على من الدين ، وانطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل : عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل يستأذن عمر ابن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى . فلما أقبل ، قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، فقال : ارفعونى ، فأسنده رجل إليه ، فقال : ما لديك ؟ قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت . قال . : الحمد لله ما كان شىء أهم إلى من ذلك . فإذا أنا قبضت فاحملونى ثم سلم ، وقل يستأذن عمر فإن أذنت لى فأدخلونى ، وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين ، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت

داخلا ، فسمعنا بكاءها من داخل ، فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف ، فقال ما رأى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله ﷺ ، وهو عنهم راض ، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن . وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شئ كهيئة التعزية له ، فإن أصابت الامارة سعداً فذاك وإلا فليستعن به أيكم أمر ثم قال : أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ، وتحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيظ العدو ، وألا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشى أموالهم ، ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل لهم من وراءهم ، ولا يكلفهم إلا طاقتهم .

قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى ، فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب ، فقالت أدخلوه فأدخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه ا . ه الحديث .

شهادة النبى صلى الله عليه وسلم لعمر

قال رسول الله ﷺ « قال لى جبريل عليه السلام : ليبك الإسلام على موت عمر » .

شهادة على بن أبى طالب لعمر

عن ابن عباس قال : وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع ، وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى ، فالتفت فإذا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فترحم على عمر . وقال : ما خلفت أحداً أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وأيم الله إن كنت لأظن فيجعلنك الله مع صاحبيك ، وذلك أنى كنت كثيراً أسمع النبى ﷺ يقول « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، فإنى كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما .

وفاة عثمان بن عفان

هذا هو ذو النورين ، عثمان بن عفان ، الحيي الكريم ، الذى تزوج اثنتين من بنات رسول الله ﷺ ، السيدة رقية ، والسيدة أم كلثوم ، وقال له النبى ﷺ ، بعد وفاة أم كلثوم : لو كان عندى عشر بنات لزوجتكهن الواحدة بعد الأخرى .

وعثمان دخل التاريخ من أشرف أبوابه ، فهو الذى جاد بماله فى سبيل الله ، وفى وجوه الخير كلها .

تعالوا نستمع الآن إلى ما قاله عبد الله بن سلام رضى الله عنه بشأن وفاة عثمان .

قال : أتيت أخى عثمان لأسلم عليه ، وهو محصور ، فدخلت عليه فقال : مرحباً يا أخى ، رأيت رسول الله ﷺ الليلة فى هذه الخوخة ، وهى خوخة فى البيت فقال : يا عثمان حصروك ، قلت نعم ، قال : عطشوك ؟ قلت : نعم ، فأدلى إلى دلواً فيه ماء ، فشربت حتى رويت ، حتى إنى لأجد برده بين ثدىي وبين كتفى وقال لى : إن شئت نصرت عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا ، فاخترت أن أفطر عنده ، فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه .

وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشحط عثمان فى الموت حين جرح .

ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟

قالوا : سمعناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد ﷺ ثلاثاً . قال : والذى نفسى بيده ، لو دعا الله ألا يجتمعوا أبداً ما اجتمعوا إلى يوم القيامة .

سخاؤه وجوده

روى البخارى فى صحيحه أن عثمان رضى الله عنه حيث حوصر أشرف عليهم وقال : أنشدكم ولا أنشد إلا أصحاب النبى ﷺ ، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : من حفر رومة فله الجنة ، فحفرتها ؟ ألستم تعلمون أنه قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة ، فجهزتها ؟ قال : فصدقوه بما قال .

وزاد النسائى فى روايته « فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقالا ولا خطاماً » .

وفى رواية الإمام أحمد رضى الله عنه ، أن عثمان جاء بألف دينار فى ثوبه فصبها فى حجر النبى ﷺ ، حين جهز جيش العسرة ، فقال النبى ﷺ « ما على عثمان ما فعل بعد اليوم » .

وقال الكرمانى : جهز عثمان جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً ، وجاء إلى النبى ﷺ بألف دينار . ولم يقف سخاء عثمان وجوده فى سبيل الله عند هذا الحد فى هذه الغزوة التى كانت تمحيصاً للإيمان ، وامتحاناً للعزائم ، فقد ورد أنه أصاب الناس فيها مجاعة ، فآووا إلى كنف عثمان فوسعهم ، واشترى لهم طعاماً أشبع الجيش كله .

ومن مآثر جوده أنه اشترى بئراً تسمى بئر رومة بعشرين ألف درهم ، وكانت هذه البئر مملوكة ليهودى يبيع ماءها للمسلمين .

روى الإمام البغوى رضى الله عنه أن المهاجرين لما قدموا المدينة استنكروا الماء ، وكانت لرجل من بنى غفار ، يقال لها رومة ، وكان يبيع القربة منها بمد ، فقال النبى ﷺ : تبيعنيها بعين فى الجنة ؟ فقال يا رسول الله ليس لى ولا لعيالى غيرها ، فبلغ ذلك عثمان رضى الله عنه ، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم ، ثم أتى النبى ﷺ فقال : أتجعل لى ما جعلته له ؟ قال : نعم ، قال عثمان : قد جعلتها للمسلمين .

وعثمان رضى الله عنه هو صاحب الأيادى البيض ، والمآثر الشامخة فهو أول من وسع مسجد رسول الله ﷺ إجابة لرغبة النبى ﷺ ، حين ضاق المسجد بأهله .

جاء فى رواية الترمذى أن عثمان لما حوصر أشرف على الناس فقال : أنشدكم بالله والإسلام ، هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ : من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير له منها فى الجنة ، فاشتريتها من صلب مالى ، وأنتم تمنعونى أن أصلى فيه ركعتين ؟ قالوا : اللهم نعم .

لقد كان السخاء سجية لذى النورين رضى الله عنه ، وصفة أصيلة متأصلة فيه ، ليس فيها رياء ولا سمعة ولا تكلف فيها ولا تعمل .

جاء ناس إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقالوا : يا خليفة رسول الله إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، وقد توقع الناس الهلاك . قال : انصرفوا واصبروا فإنى أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم . فلما كان آخر النهار ورد الخبر أن عيراً لعثمان جاءت من الشام ، وتصبح المدينة ، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها ، فإذا هى ألف بعير محملة براً وزيتاً وزبيباً ، فأناخت بباب عثمان رضى الله عنه ، فلما جعلها فى داره ، جاءه التجار ، فقال لهم : ما تريـــدون ؟ قالوا إنك لتعلم ما نريد ، بعنا من هذا الذى وصل إليك فإنك تعلم ضرورة الناس . قال حباً وكرامة . كم تربحوننى على شرائى ؟ قالوا : الدرهم درهمين . قال أعطيت زيادة على هذا ، قالوا أربعة ، قال : أعطيت زيادة على هذا ، قالوا : خمسة ، قال : أعطيت أكثر من هذا ، قالوا : يا أبا عمرو ، ما بقى فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذى أعطاك ؟ قال : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة أعندكم زيادة ؟ قالوا : لا ، قال : فإنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين .

خصائص عثمان

كان عثمان رضى الله عنه أحد السابقين الأولين .

قال ابن إسحاق « أول الناس إسلاماً بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة عثمان بن عفان » .

وهو ثالث الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة وذو النورين .

انعقدت له البيعة بإجماع المسلمين بعد الشورى ، وهو صاحب الفتوحات الإسلامية الخالدة ، وهو جامع الناس على المصحف الإمام .

كانت شخصية عثمان رضى الله عنه أعظم مظهر للإنسانية النبيلة ، فى أسمى جوانبها ، وأصفى خصائصها ، فهى الرحمة المجسمة ، وهى الإخلاص كله ، وهى الحب للخير فى أعم نواحيه ، حباً ناطقاً .

تلاءمت هذه الشخصية الكريمة بفطرتها الرحيمة ، وروح الإسلام الجياشة بعواطف البر والرحمة ، فتفتحت لها القلوب ، وهو الرجل الذى أحبه الناس قبل الإسلام وبعده حباً لم يظفر به إلا آحاد الناس .

هذا هو عثمان وما ذكرناه عنه ما هو إلا غيض من فيض ، وقطرة من بحر ، وسطر من قطر ، وجزء من كل ، وإن مثلى مع عثمان فى هذه العجالة ، كشعاع الشمس المتسلل من حنايا النافذة ، يلقى الله شهيداً ليكون مع الذين قال فيهم مولانا تبارك وتعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون) .

فماذا كان يقول عثمان وهو يطعن بالسهام والخناجر والسيوف من أهل الفتنة الذين انساقوا وراء اليهودى عبد الله بن سبأ الذى تظاهر بالإسلام ، وأضمر فى قلبه فحيح الأفاعى ، ومكر الثعالب ، ومسكنة التماسيح ، والذى طاف أرض المسلمين مشرقاً ومغرباً يبذر فيها الفتن ،

حتى باضت وفرخت ، ووقفت أمام عثمان البرىء الطاهر ، الخليفة المفترى عليه ، تحاصر بيته ، وتوجـــه إليه سهامها ، وهو يقرأ المصحف الشريف ، ويحنو عليه كما تحنوا الأم على رضيعها .

ماذا كان يقول عثمان والسهام تتناوله من كل جانب ؟ كان يقول : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . اللهم إنى أستعديك عليهم ، وأستعينك على جميع أمورى ، وأسألك الصبر على ما ابتليتنى » .

يرحمك الله يا عثمان (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم) .

نشهد أنك يا عثمان حملت الأمانة بأمانة ، وتحملت الضراء ، وصبرت على البلاء ، فجزاك الله عن الإسلام والمسلمين خيراً . وإلى أن نلقاك فى جوار الدائم الفرد الصمد ، فاسترح واهنأ مع حبيبك وصهرك سيد الخلق ، وحبيب الحق محمد ﷺ .

وفاة على كرم الله وجهه

هذا هو الشهيد ، وأبو الشهداء ، على رضى الله عنه ، ولا أجد كلمة أستطيع أن أقولها فى هذا العبقرى الفذ ، أبلغ مما قاله رسول الله ﷺ يوم خيبر ، عندما وقف يقول : سأعطى الراية اليوم رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، فاشرأبت أعناق الصحابة ، وكلهم

يتمنى أن يعطى الراية ، وينال هذه المكانة ، التى تتشوق إليها النفوس ، وتشتاق لها الأرواح ، فأعطى النبى ﷺ الراية لعلى .

قال معاوية بن أبى سفيان لضرار الصدائى ، وكان من أصحاب الإمام على : يا ضرار صف لى علياً . قال : أعفنى يا أمير المؤمنين ، قال : لتصفنه ، قال ضرار : أما إذا لابد من وصفه ، فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فضلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته .

كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن .

كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته : يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، متمثلا فى محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء اليتيم ، يقول : يـا دنيا غرى غيرى ، أإلى تعرضت ؟ أم إلى تشوقت ؟ هيهات . هيهات . لقد طلقتك ثلاثاً ، لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك حقير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

فبكى معاوية رحمه الله وقال : يرحم الله أبا الحسن ، لقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها .

كيف توفى رضى الله عنه ؟

قال الأصبغ الحنظلى : لما كانت الليلة التى أصيب فيها على كرم الله وجهه ، أتاه ابن التياح ، حين طلع الفجر ، يؤذنه بالصلاة ، وهو مضطجع ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة ، فقام على يمشى وهو يقول :

أشدد حيازمك للموت
فإن الموت لاقيك
ولا تجزع من الموت
إذا حل بواديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة على وزوج أمير المؤمنين عمر ، تقول : قتل زوجى أمير المؤمنين فى صلاة الغداة ، وقتل أبى فى صلاة الغداة .

وعن شيخ من قريش أن علياً كرم الله وجهه ، لما ضربه ابن ملجم قال : فزت ورب الكعبة

وعن محمد بن على أنه لما ضرب على رضى الله عنه أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بـلا إله إلا الله حتى قبض .

* * *

ذكر الرواة أن الحسن بن على رضى الله عنه لما حضرته الوفاة ، دخل عليه أخوه الحسين رضى الله عنه فقال له : يا أخى لأى شىء تجزع ، تقـدم على رسول الله ﷺ ، وعلى على بن أبى طالب وهما أبواك ، وعلى خـديجة وفاطمة وهما أماك ، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك . قال : يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله .

وروى محمد بن الحسن رضى الله عنهما قالا : لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه ، وأيقن أنهم قاتلوه ، قام فى أصحابه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من الأمر ما ترون ، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت ، وأدبر معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء . ألا حسبى من عيش كالمرعى الوبيل . ألا ترون الحق لا يعمل به ، والباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن فى لقاء الله تعالى ، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا جرماً .

يرحم الله علياً وبنيه ، وطيب الله ثرى أهل كربلاء .

لقد كنت يا على الرجل الذى صاهر رسول الله ، وهو خير خلق الله ، وتزوج فاطمة ، وهى سيدة نساء أهل الجنة ، ورزقك الله منها الحسن والحسين وهما سيدا شباب أهل الجنة .

ويرحمك الله يا حسين .

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
ولكن كبراً أن يقال به كبر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الطعن واعتلت عليه القنى السمر
تردى ثياب الموت حمراً فما دجى الليل
إلا وهى من سندسى خضر
إذا شجرات العرف جذت أصولها
فتى أى فرع يوجد الورق النضر
عليك سلام الله وقفاً فإننى
رأيت الكريم الحر ليس له عمر

يا على يا من أنت أول من أسلم من الصبيان ، استرح فى جوار الحق .

(يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

فصل فى كلام الصالحين وهم على فراش الموت

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال : أقعدونى ، فأقعد ، فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى ، وقال : تذكر ربك يا معاوية

بعد الهرم والانحطاط ، ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان ، وبكى حتى علا بكاؤه وقال : يا رب ارحم الشيخ العاصى ، ذا القلب القاسى ، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة ، وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ، ولم يثق بأحد سواك .

عبد الملك بن مروان

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوباً بيده ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوماً بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيئاً ، فبلغ ذلك أبا حازم ، فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه . وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه .

وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) الآيـــة ، ومات .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، إمرأة عمر بن عبد العزيز : كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ، ولو ساعة من نهار ، فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده ، فجلست فى بيت آخر بينى وبينه باب ، وهو فى قبة له ، فسمعته يقول (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى

الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين (ثم هدأ ، فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاماً ، فقلت لوصيف له : أنظر أنائم هو ؟ فلما دخل صاح فوثبت فإذا هو ميت .

وقيل له لما حضره الموت : اعهد يا أمير المؤمنين ، قال : أحذركم مثل مصرعى هذا فإنه لابد لكم منه .

وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب ، فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت ، فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضاً على من لم يسق السم . قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى . قال : فتعالج يا أمير المؤمنين فإنى أخاف أن تذهب نفسك ؟ قال : ربى خير مذهوب إليه ، والله لو علمت أن شفائى عند شحمة أذنى ما رفعت يدى إلى أذنى فتناولته ، اللهم خر لعمر فى لقائك ، فلم يلبث إلا أياماً حتى مات .

وقيل : لما حضرته الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سنناً ، وأظهر بك عدلا ، فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق ، فو الله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى ألا تقوم بحجتها بين يدى الله ، إلا أن يلقنها الله حجتها ،

فكيف بكثير مما ضيعنا ، وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات .

ولما قرب وقت موته ، قال : أجلسونى ، فأجلسوه ، فقال : أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت ، ثلاث مرات . ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحد النظر ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنى لأرى خضرة ما هم بإنس ولا جن . ثم قبض رحمه الله .

أقوال الأمراء عند الموت

وحكى عن هارون الرشيد أنه أنتق أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول (ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه) .

وفرش المأمون رماداً واضطجع عليه ، وكان يقول : يا من لا يزول ملكه ، ارحم من قد زال ملكه .

وكان المعتصم يقول عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت .

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته ، فقيل له : لا بأس عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : ليس إلا هذا وقد ذهبت الدنيا ، وأقبلت الآخرة .

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة ، وقد نظر إلى صناديق لبنيه : من يأخذها بما فيها ، ليته كان بعراً .

وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لى فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لى ، فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ، ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل : نعم قال : عسى .

معاذ بن جبل وسلمان الفارسى

لما حضرت معاذاً رضى الله عنه الوفاة قال : اللهم إنى قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر . ولما اشتد به النزع ونزع نزعاً لم ينزعه أحد ، كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال : رب ما أخنقنى خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبى يحبك .

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى جزعاً على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب . فلما مات سلمان نظر فى جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشرة درهماً .

بلال بن رباح

ولما حضر بلالا الوفاة قالت إمرأته : واحزناه .

فقال : بل واطرباه غداً نلقى الأحبة ، محمـــداً وحزبه .

عبد الله بن المبـــارك

فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال (لمثل هذا فليعمل العاملون) .

إبراهيم النخعى

لما حضر إبراهيم النخعى الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟

قال : أنتظر من الله رسولا يبشرنى بالجنة أو بالنار .

ابن المنكدر

ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : والله ما أبكى لذنب أعلم أنى أتيته ، ولكن أخاف أنى أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم .

عامر بن عبد القيس

لما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى جزعاً من الموت ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولكن أبكى على ما يفوتنى من ظمأ الهواجر ، وعلى قيام الليل فى الشتاء :

ولما حضرت فضيلا الوفاة ، غشى عليه ، ثم فتح عينيه ، وقال : وابعد سفراه ، واقلة زاداه .

ابن المبـــارك

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة ، قال لنصر مولاه : اجعل رأسى على التراب ، فبكى نصر ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من النعيم وها أنت ذا تموت فقيراً غريباً . قال : أسكت فإنى سألت الله تعالى أن يحيينى حياة الأغنياء ، وأن يميتنى موت الفقراء ، ثم قال له : لقنى ولا تعد على ما لم أتكلم بكلام ثان .

أبو القاسم الجنيد

دخل أبو العباس بن عطاء على الجنيد فى وقت نزعه ، فسلم عليه ، فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال : اعذرنى فإنى كنت فى وردى ، ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات .

العارف بالله الكتانى

قيل للإمام الكتانى لما حضرته الوفاة : ما كان عملك فقال : لو لم يقرب أجلى ما أخبرتكم به ، وقفت على باب قلبى أربعين سنة ، فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه .

يوسف بن أسباط

لما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة ،شهده حذيفة ، فوجده قلقاً ، فقال : يا أبا محمـــد هذا أوان القلق والجزع ، فقال : يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإنى لا أعلم أنى صدقت الله فى شيء من عملى ، فقال حذيفة : واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله فى شى من عمله .

الإمام الشافعى

دخل المزنى على الشافعى رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه ، فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عملى ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله تعالى وارداً ، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها ، ثم أنشأ يقول :

ولمـــا قسى قلبى وضاقت مذاهبى
جعلت رجـــائى نحو عفوك سلماً
تعـــاظمنى ذنبى فلمـــا قرنتـــه
بعفـــوك ربى كان عفوك أعظماً

فـــا زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل
تجـــود وتعفـو منـــة وتكـرماً

أحمد بن خضرون

ولما حضر أحمد بن خضرون الوفاة ، سئل عن مسألة ، فدمعت عيناه وقال : يا بنى باب كنت أدقه خمساً وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لى لا أدرى أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ، فآن لى أوان الجواب .

تذكرة لأولى الألباب

اعلم بأن الجنائز عبرة للبصير ، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون . أو يحسبون ذلك ، ولكنهم على القرب لا يقدرون ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسبانهم ، وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها على القرب ، وكأن قد ، ولعله فى غد أو بعد غد .

ويروى عن أبى هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال : أمضوا فإنا على الأثر .

وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإنا رائحون ، موعظة بليغة ، وغفلة سريعة ، يذهب الأول والآخر لا عقل له .

وقال أسيد بن حضير : ما شهدت جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ما هو منقول به وما هو صائر إليه .

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول : والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولا أعلم ما دمت حياً .

فهكذا كان خوفهم من الموت .

والآن لا تنظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه . ولا يتفكر واحد منهم إلا من شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها ، ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر ، والأهوال التي بين أيدينا ، فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا .

فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة . فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت .

نظر إبراهيم التيمي إلى أناس يترحمون على الميت فقال : لو ترحمون على أنفسكم لكان خيراً لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك

الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الخاتمة وقد أمن .

وقال أبو عمرو بن العلاء : جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعراً ، فاطلعت جنازة فأمسك وقال : شيبتني والله هذه الجنائز ، وأنشأ يقول :

تروعنا الجنـائز مقبـلات ونلهـو حين تذهب مدبرات
كروعـة ثـلة لمغـار ذئب فلما غـاب عـادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع .

ومن آدابه حسن الظن بالميت ، وإن كان فاسقاً ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمـة خطيرة لا ندرى حقيقتها .

قال الضحاك قلت : « يا رسول الله من أزهد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والبلى، وترك فضل زينة الدنيا ، وآثر ما يبقى على ما يفنى ، ولم يعد غداً من أيامه ، وعد نفسه من أهل القبور .

وقيل لعلي كرم الله وجهه : ما شأنك جاورت المقبرة ؟ قال : إني أجدهم خير جيران . إني أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ، ويذكرون الآخرة .

وقال رسول الله ﷺ « ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه »

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد » رواه الترمذى .

وقيل : إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له : هذا شيء لم تكن تصنعه ، فقال : ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه ، فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما .

وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته تقول : أنا بيت الدود ، وبيت الوحدة ، وبيت الغربة ، وبيت الظلمة ، هذا ما أعددت لك فما أعددت لى ؟ .

وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى : يوم أضع فى قبرى .

وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أجلس إلى قوم يذكرونى معادى ، وإذا قمت لم يغتابونى .

وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول : يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لا تجيبونى ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى ، وكأنى بى أكون مثلهم ، ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان ، لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره

لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ، ويجرى فيه الصديد ، وتخترقه الديدان مع تغير الريح ، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة ، وطيب الريح ، ونقاء الثوب . قال ثم شهق شهقة خر مغشياً عليه .

وكان يزيد الرقاشى يقول أيها المقبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته ، المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ، ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت ، وبأى إخوانك اغتبطت ، ثم يبكى حتى يبل عمامته ، ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة ، واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى . وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور .

وقال حاتم الأصم . من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ، ولم يدع لهم ، فقد خان نفسه وخانهم .

وكان بكر العابد يقول : يا أماه ليتك كنت بى عقيماً ، إن لأبنك فى القبر حبساً طويلا ، ومن بعد ذلك منه رحيلا .

وقال يحيى بن معاذ : يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام ، فانظر من أين تجيبه ، إن أجبته من دنياك ، واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها ، وإن أجبته من قبرك منعتها .

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ما أحسن ظواهرك إنما الدواهى فى بواطنك .

وكان عطاء السلمى إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : يا أهل القبور متم فواموتاه ، وعاينتم أعمالكم فواعملاه ، ثم يقول : غداً عطاء فى القبور ، غداً عطاء فى القبور ، فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح .

وقال سفيان : من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار .

وكان الربيع بن خيثم قد حفر فى داره قبراً ، فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول : (رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت) يرددها ثم يرد على نفسه ، يا ربيع قد رجعتك فاعمل .

وقال أحمد بن حرب : تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ، ويسوى فراشه للنوم ، فتقول : يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك ، وما بينى وبينك شىء .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال : يا ميمون هذه قبور آبائى بنى أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلى ، وأصابت الهوام مقيلا من أبدانهم ، ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله .

وقال ثابت البنانى : دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها إذا بصوت قائل يقول : يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها :

قال مالك بن دينار : مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه ... وأين المزكى إذا ما افتخر
تفانوا جميعاً فما مخبر ... وماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحوا محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مضوا ... أما لك فيما مضى معتبر

يا ابن آدم

تناجيك أجداث وهن صموت
وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغة
لمن تجمع الدنيا وأنت تموت
إن الحبيب من الأحباب مختلس
لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها
يا من يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا فى النقص منغمساً
وأنت دهرك فى اللذات منغمس

لا يرحم الموت ذا جهـــل لغرته
ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت فى قبر وقفت به
عن الجـــواب لساناً ما به خرس
قـــد كان قصرك معمـــوراً له شرف
فقبرك اليوم فى الأجـــداث مندرس

وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال . اللهم إنى أصبحت أرجوك له وأخافك عليه ، فحقق رجائى وآمن خوفى .

ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد غفرت له ما وجب لى عليه ، فاغفر له ما وجب لك عليه ، فإنك أجود وأكرم .

ووقف أعرابى على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد وهبت له ما قصر فيه من برى ، فهب له ما قصر فيه من طاعتك .

مر أحد الصالحين بامرأة تكثر من الحمد لله وتسترجع تقول الحمد لله إنا لله وإنا إليه راجعون ، فسألها ماذا بك يا أمة الله ؟ فقالت له : يا عبد الله إنى لفى حزن ما يشركنى فيه أحد . قال فكيف ؟ قالت : إن زوجى ذبح شاة فى يوم عيد الأضحى ، وكان له صبيان مليحان يلعبان ، فقال أكبرهما للآخر : أتريد أن أريك كيف ذبح أبى الشاة ؟ قال : نعم ، فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطاً فى دمه . فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام ، فلجأ إلى جبل ، فرهقه ذئب فأكله ، وخرج أبوه يطلبه فمات عطشاً من شدة الحر . قالت : فأردانى الدهر كما ترى .

فى زيارة القبور عبرة

روى على بن أبى طالب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كنت نهيتكم عن زيادة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير ألا تقولوا هجراً » رواه أحمد وأبو يعلى فى مسنده وابن أبى الدنيا .

واعلم يا أخا الإسلام أن زيارة القبور مستحبة للتذكر والاعتبار بأهلها ، ومن فيها من الذين كانوا قبل ذلك ينسمون نسيم الحياة وطيب روائحها ، فأصبحوا تحت الثرى أجساداً هامدة وعظاماً نخرة ، ورفاتاً سحيقة ، وصعيداً حرزاً .

عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « زر القبور تذكر بها الآخرة » ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة ، وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين فى ظل الله » .

وقال ابن أبى مليكة : قال رسول الله ﷺ « زوروا موتاكم وسلموا عليهم إن لكم فيهم عبرة » .

وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنه لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه .

وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » .

قال بشر بن منصور : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل الله حسناتكم . » لا يزيد على هذه الكلمات .

قال الرجل : فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءونى ، فقلت ما أنتم ، وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما جاء بكم ؟ قالوا : إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها ، قلت فإنى أعود لذلك ، فما تركتها بعد ذلك .

قال رسول الله ﷺ « ما الميت فى قبره إلا كالغريق المغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها . وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار » .

قال أحد الصالحين : مات أخ لى فرأيته فى المنام ، فقلت : ما كان حالك حيث وضعت فى قبرك ؟ قال : أتانى آت بشهاب من نار ، فلولا أن داعياً دعا لى لرأيته أنه سيضربنى به .

ولذا يستحب الدعاء للميت والاستغفار له .

اعلم يا أخا الإسلام أن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى ، وإنى لآتى القبور . فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأنى

أنظر إلى تلك الوجـــوه المتعفرة ، وإلى تلك الأجسام المتغيرة ، وإلى تلك الأجفان الذابلة ، فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم .

ما أنكر مرارتها للأنفس ، وما أشد تلفها للأبدان ! !

ومن ثم ينبغي لزائر القبور أن يستحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة ، فقال له : يا فلان لو رأيتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقـــد خرجت الحدقتان ، فسالتا على الخـدين ، وتقلصت الشفتان عن الأسنان ، وخرج الصديد من الفم ، وانفتح الفم ونتأ البطن ، فعلا الصدر ، وخرج الدود والصديد من المناخر ، لرأيت أعجب مما تراه الآن .

* * *

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل .

قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه » .

وقال ﷺ « لا تذكروا أمواتكم إلا بخير ، فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا ، وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه » .

وقال أنس بن مالك « مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شراً ، فقال عليه السلام : وجبت ، ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيراً ، فقال رسول الله ﷺ : وجبت ، فسأله عمر عن ذلك ،

فقال : إن هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار ، وأنتم شهداء الله فى الأرض » .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « إن العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره ، فيقول الله تعالى للملائكته : أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبدى وتجاوزت عن علمى فى عبدى » .

التعلق الخامس

وهو تعلق الروح بالجسد بعد البعث ، وقد سبق لنا أن تحدثنا عن تعلقات الروح بالبدن فى أربعة مواضع ، وهى تعلقها به فى الرحم ، وتعلقها به فى الدنيا ، وتعلقها به فى المنام ، وتعلقها به بعد البعث والنشور ، ولابد لنا من مدخل نصل به إلى قضية البعث ، وهذا المدخل هو الحديث عن الموت .

الحديث عن الموت وحقيقته إلى النفخ فى الصور

يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى تعريف الموت : « إن الموت معناه تغير حال فقط ، وإن الروح باقية بعد مفارقة الجسد ، إما معذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى أنها لتبطش باليد ، وتسمع بالأذن ، وتبصر بالعين ، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ، ويتنعم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء ، فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلا أن تعاد

الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده ، وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه ، وبشدة تقع فى الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها . والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها ، وكل الأعضاء آلات ، والروح هى المستعملة لها ، وأعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ، ولذات الأفراح . ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الأفراح والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات ، وذلك لا يموت أى لا ينعدم . ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة ، فالموت زمانة مطلقاً فى الأعضاء كلها . وحقيقة الإنسان نفسه وروحه ، وهى باقية . نعم تغير حاله من جهتين : إحداهما أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده ، وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المؤلم هو الفراق ، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل ، وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال ، والألم واحد فى الحالتين ،

وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخ لا يناسب هذا العالم ، فإن كان له فى الدنيا شيء يأنس به ، ويستريح إليه ، ويعتد بوجوده ، فيعظم تحسره عليه بعد الموت ، ويصعب شقاؤه فى مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به ، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ، ولم يأنس إلا به ، عظم نعيمه وتمت سعادته . إذ خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثانى أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له فى الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له فى النوم ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطوراً فى كتاب مطوى فى سر قلبه ، وكان يشغله على الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يوشك أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له (كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن ، وتشتعل فيه نيران الفراق ، أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية ، دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة ، فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد ، إذ لم يكن

زيد الزاد لعينه ، وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة ، وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان يوده ، واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ، ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب ، وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره وملكه وحريمه اعتماداً على أن الملك يتساهل فى أمره أو على أن الملك ليس يدرى بما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بغتة ، وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة ، وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ، ومنتقم من الجناة على ملكه ، غير ملتفت إلى من يتشفع إليه فى العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم ، فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ ، بالله منه ، فإن الخزى والافتضاح ، وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب بقطع وغيرهما . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت ، شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين ، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة .

نعم لا يمكن كشف الغطا عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح فى نفسها ، وإدراك ماهية ذاتها ، ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ولا أن

يزيد على أن يقول : الروح من أمر ربى ، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت .

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة : أما الآيات فما ورد فى الشهداء إذ قال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين . . .).

ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله ﷺ فقال : « يا فلان يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات ؟ فقال ﷺ : والذى نفسى بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب » .

فهذا نص فى بقاء روح الشقى ، وبقاء إدراكها ومعرفتها ، والآية نص فى أرواح الشهداء ، ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة .

وقال ﷺ : « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » .

وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله .

قال النبي ﷺ : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال : هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة » .

وليس يخفى ما فى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال .

* * *

ولما كان هذا الموضوع الدقيق يحتاج إلى شرح وتفصيل ، فسوف نبسط الحديث فيه بإذن الله فى كتابنا القادم الذى سيكون عنوانه اليوم الحق ، سائلين الله تبارك وتعالى أن يلهمنا التوفيق والعمل ، وأن يجنبنا الخذلان والزلل ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائه .

* * *

هذا وقد فرغنا من إملاء هذا الكتاب فى الليلة السابعة عشرة من شهر ذى القعدة عام خمس وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، الموافق الليلة العشرين من شهر نوفمبر عام خمس وسبعين وتسعمائة وألف من الميلاد .

والله المستعان وعليه التكلان .

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧	البقاء لله وحده	٤٠
التعلق الأول	٩	أبو حازم وسليمان	
التعلق الثانى	٩	بن عبد الملك	٤٥
التعلق الثالث	١١	حسن الظن بالله	٤٦
التعلق الرابع	١١	عثمان بن عفان يبكى	٤٨
حديث الغزالى عن الموت	١٢	اصطلحوا مع الله	٤٩
سكرات الموت	١٣	كلمات طيبة	٥١
الأعضاء عند سكرات الموت	١٧	من يموت وهو يشهد	
رؤية المطيع لملك الموت	١٩	أن لا إله إلا الله	٥٣
رؤية الملكين الحافظين	١٩	الخوف من الله	٥٧
الميت يعرف أين مقعدة	٢٠	ما يرقق القلوب	٥٨
الموت حق على جميع العباد	٢٣	نبذة عن وفاة أبى بكر	
وفاة النبى	٢٤	الصديق رضى الله عنه	٦٤
موقف الصحابة بعد وفاة		وفاة عمر بن الخطاب	
الرسول	٣٤	رضى الله تعالى عنه	٦٦
كيف غسل رسول الله ﷺ ؟	٣٧	كيف استشهد عمر ؟	٦٧
لنا فى موت رسول الله عبرة	٣٧	شهادة النبى ﷺ لعمر	٧٠

الفهـرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
شهادة على ابن أبى طالب لعمر	٧١	عامر بن عبد القيس	٨٧
وفاة عثمان بن عفان	٧١	ابن المبارك	٨٨
سخاؤه وجوده	٧٣	أبو القاسم الجنيد	٨٨
خصائص عثمان	٧٥	العارف بالله الكتانى	٨٨
وفاة على كرم الله وجهه	٧٧	يوسف بن أسباط	٨٩
كيف توفى رضى الله عنه	٧٩	الإمام الشافعى	٨٩
فصل فى كلام الصالحين وهم		أحمد بن خضرون	٩٠
على فراش الموت	٨١	تذكرة لأولى الألباب	٩٠
عبد الملك بن مروان	٨٢	يا ابن آدم	٩٦
معاذ بن جبل وسلمان الفارسى	٨٦	فى زيارة القبور عبرة	٩٨
بلال بن رباح	٨٦	التعلق الخامس	١٠٢
عبد الله بن المبارك	٨٧	الحديث عن الموت وحقيقته	
إبراهيم النخعى	٨٧	إلى النفخ فى الصور	١٠٢
ابن المنكدر	٨٧	الفهـرس	١٠٩

رقم الايداع ٧٩/٣٧٥٣
الترقيم الدولى ISBN ٧٠٤٩ ـ ٥٦

مطابـــع
المكتب المصري الحديث